من قضايا السيرة النبوية
(تصحيح لمفاهيم خاطئة)

للدكتور محمد الطيب النجار (*)

مقـــدمة

كانت سيرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم هى الأساس الكامل لدعوته الكريمة التى أضاءت المشارق. والمغارب وملأت العالم بالهدى والنور . ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاءة العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء. حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلا بعد جيل . ثم سجلت على مختلف العصور فى كتب يضيق بها الحصر والتعداد . وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء وتنكدر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات .

وواجب المؤرخ الذى يتصدى لكتابة السيرة النبوية أن يستضىء أول ما يستضىء بكتاب الله عز وجل ، ثم يلى ذلك فى الأهمية كتب السنة الصحيحة ، وتجىء بعد ذلك المراجع الأساسية الأصيلة فى التاريخ الإسلامى ويضاف إلى ذلك كله ما كتبه المؤرخون المحدثون ؛ كى يستنير الباحث بآرائهم الصائبة أو يضيف إليها ما يمكن أن يهتدى إليه من آراء جديدة . أو يفند ما جاء فى بعضها من الآراء التى لاتستند إلى أساس سليم .

ومن المعروف أن المستشرقين الغربيين قد تناولوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تناولوه من الأبحاث فى التاريخ الإسلامى ولكن روح التعصب والتحامل كانت تطغى على معظم كتاباتهم ومن أبرز هؤلاء الذين ظهرت فيهم روح التعصب فى كتابتهم عن الرسول « وليم موير » و « كايتانى » . ومن المعروف — أيضاً — أن كتب السيرة كغيرها من سائر الكتب الإسلامية قد دست إليها فى

(*) ألقى فى الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

عصور التدوين الأولى بعض المفتريات وكان أساسها هؤلاء الذين أسلموا ظاهراً ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم . أو دخلوا فى الإسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه .

لذا أصبح لزاماً علينا أن نتبين مثل هذه الروايات الدخيلة وأن ننظر إليها بعين الفاحص المتأمل حتى يمكن أن نصفيها – بقدر ما نستطيع – من الشوائب والرواسب . أو نطرحها جانباً إن كانت خبيثة الجوهر فاسدة العنصر مهما كانت خادعة المظهر ومهما لبست من ثياب براقة زاهية .

على أن ذلك كله فى نطاق محدود ويجب أن يكون بعيداً عن المعجزات الثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه المعجزات كشق الصدر وانشقاق القمر . إلى غير ذلك من سائر المعجزات التى صحت نسبتها ورجحت روايتها لاينبغى أن تناقش فى ضوء المنطق وعلى أساس من الأسباب والمسببات . وإلا لما كانت معجزات . أما المعجزات التى لم تصح نسبتها ولم ترجح روايتها فإن رسول الله فى غنى عنها ولا ينبغى لنا أن نتمسك بها .

وإذا كانت قضايا السيرة هى الأحداث الكبرى التى مرت على الرسول أو مر هو بها فإن الحديث عنها يطول كثيراً ويكاد ينتظم حياة الرسول جميعها ، ومن أجل ذلك آثرنا أن نتحدث عن بعض الأحداث التى اختلفت فيها وجهات النظر . وتعرضت لأفهام خاطئة من بعض الكتاب المسلمين أو لمفتريات كاذبة من غير المسلمين ثم نحاول أن نبين وجه الحق فيها بقدر ما نستطيع ونسأل الله أن يسدد خطانا على الطريق ، وأن يجنبنا شر الزلل ويوفقنا لخير العمل . وبالله التوفيق .

١ ــ « قل انما أنا بشر مثلكم »

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الدنيا كحياة المشكاة النيرة يتألق ضوؤها ذات اليمين وذات الشمال وفى كل مجال ويهدى الله بها من يشاء من عباده . فلما قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضع جسده الطاهر فى باطن الأرض رجع الناس بسيرته نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشاداً ما دامت السماوات والأرض وما بقى الوجود كله .

وإنه لحق علينا ــ نحن المسلمين ــ أن ننتفع بهذا النور المبين وأن نحسن استغلاله بدل أن تعشى به أبصارنا فيلتوى علينا القصد ويضيع منا الطريق . بيد أن بعض المسلمين قد عشيت أبصارهم بهذا النور إذ فتنوا بحبهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم فضلوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . ذلك بأنهم قد بالغوا فى تقديس النبي مبالغة أنستهم أنه بشر وأنه خلق من طين كما خلق سائر البشر فقالوا عنه إنه خلق من نور وقالوا عنه إنه أول خلق الله ، واستدلوا على ذلك بروايات موضوعة لاتمت إلى الحق بأى سبب وغفلوا عن الآيات الواضحة الصريحة التى ذكرها الله عز وجل فى محكم كتبه والتى يتبين منها حقيقة البشرية التى أكدها الله وأمر رسوله أن يعلنها للناس فى مثل قوله سبحانه فى سورة الكهف : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » ، ثم زادها تأكيداً فى آية أخرى تشير إلى أن محمداً خلق من نفس الطينة التى خلق منها سائر البشر وذلك حيث يقول فى سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ».

ولقد ذكر بعض المفسرين فى تفسيرهم لقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور فى هذه الآية الكريمة هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول إن محمداً مخلوق من نور جهلا منهم بما يفهم من الآية . إذ لاشك أن النور الذى جاء فى الآية الكريمة هو النور المعنوى الذى يضىء للناس طريق الحق وليس النور الحسى الذى تراه العين والذى يضىء كما تضىء المصابيح وكما تضىء الكواكب ؛ فالواقع الذى تطمئن له النفوس وتنهض به الحجة أن محمد أنور لأنه أضاء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ولكنه مخلوق من التراب الذى خلق منه سائر البشر وليس يضيره فى قليل أو كثير أن يكون

مخلوقاً من التراب ما دام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكريمة التى أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم كله بالهدى والرشاد..

والواقع الذى تطمئن إليه النفوس وتنهض به الحجة أن محمدا أول خلق الله منزلة وأعلاهم قدراً وليس أول خلق الله وجوداً وأقدمهم مولداً ذلك بأنه فى التسلسل الزمنى كان خاتم الأنبياء والمرسلين . فهو مكمل للبناء العظيم الذى أقامه الأنبياء لإسعاد البشر منذ وجد آدم أبو البشر ، ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد صلوات الله وسلامه عليه من أبناء آدم ثم يوجد قبل ابيه .ولا يستقيم مع المنطق السليم — كذلك — أن تكون الأفضلية بين الناس بقدم الميلاد وإلا لكان الآباء أبداً أفضل من الأبناء . وكان الأجداد — على توالى العصور — أفضل من الآباء والأحفاد .

وإذا كان من واجبنا — كمسلمين — أن نقدر نبينا العظيم حق قدره فإنه لحق علينا — كذلك — ألا نسىء الفهم ونتجاوز الحد فنبعد نبينا عن منزلته وقدره فما ؛ أبعد الفرق بين التقدير والتقديس وبين الحب والعبادة .

٢ ـ « قصة الفيل والطير الأبابيل »

يقول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ؛ ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وتشير الآيات الكريمة إلى تلك المحاولة التى قام بها القائد الحبشى أبرهة الأشرم حيث توجه إلى مكة يريد هدم الكعبة. ولسنا الآن بصدد الأسباب التى دفعته إلى هذه المحاولة ولكننا سنقف عند تلك الآية الكبرى التى تجلت فى ذلك اليوم فكانت معجزة باقية على الدهر وسجلها الكتاب العزيز فى سورة من سوره حيث أرسل الله على الجيش الحبشى . جماعات من الطير أمثال الخطاطيف ومع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحدا إلا هلك .

وقد ذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول فخرجوا يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا وحينئذ رآهم أعرابى فى هـذه الحيرة فأدرك أنهم قد أحيط بهم وقال :

أين المفر والإله الطالب
والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير ، وما زال هكذا حتى انصدع صدره عن قلبه . وهكذا كان هلاكهم كما أشارت السورة الكريمة حيث يقول سبحانه مشيراً إلى نهايتهم : « فجعلهم كعصف مأكول » .

ومن عجب أن تكون الآيات الكريمة واضحة كل الوضوح فى تصوير هذه الحادثة ومع ذلك يوجد من علماء المسلمين من يحاولون تأويلها ويقولون إن الله عز وجل يريد بالطير الأبابيل الرياح المتجمعة وبالحجارة من السجيل ذرات التراب التى حملت ميكروب الجدرى. وممن ذهب إلى هـذا الرأى الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لجزء عم والدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد والدكتور طه حسين فى كتابه على هامش السيرة .

ومن واجبنا أن نقول لمن يقرءون هذه الآراء إنه لم يعهد فى لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أى جماعات من الطيور

ولا ينبغى أن يقال ذلك إلا بطريق مجازى بعيد ، ولا يصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز مادامت الحقيقية غير مستحيلة على قدرة الله تعالى . وكذلك لايقبل فى لغة العرب أن يقال عن الذرات من التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ فى النار وهو الآجر ، وإذا كانت الريح — كما يزعمون — قد حملت ميكروب الجدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟ . وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم فى وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم وبعضهم كان من المشركين الذين لم يؤمنوا برسالة محمد . فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية والحجارة حجارة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد . وينتهزها فرصة فى الكيد لمحمد والطعن عليه ، . ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لاشك فيها ولا يجرؤ أحد على إنكارها .

وعلى هذا فالطير الأبابيل هى الطيور الحقيقية المعروفة لدى الناس جميعاً ، ولعلها غارات جوية وقعت فى هذا العالم قبل الأوان. لم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان.

ولقد سجل العرب فى شعرهم هذا الحادث العجيب وتغنوا به أمام العصور والأجيال، ومن ذلك قول نفيل بن حبيب يصور ماوقع للأحباش فى ذلك اليوم :

ألا حييت عنا ياردينـــا
تعمناكم مع الإصباح عينا
حمدت الله إذا أبصرت طيرا
وخفت حجارة تلقى علينـــا

وقول أمية بن أبى الصلت :

إن آيات ربنـا ثاقبـــات
لايمارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيـل بالمغمس حتى
طل يحبـــو كأنه معقـــور

وقول عبد الله بن قيس :

كاده الأشرم الذى جاء بالفيل فولى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالجندل حتى كأنه مرجوم

وهكذا حمى الله بيته المحرم من عدوان الظالمين لأنه البيت العتيق الذى كان مصدر

الهدى والنور منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . فلما تغيرت الأحوال وعبد العرب الأصنام وتركوا النور وتخبطوا فى الظلام شاء الله ألا يطول عليهم الأمد فى هذه الظلمات وأراد بهم الخير فحمى هذا البيت من عدوان الأحباش ليعود إليه مجده التليد ، ويتلألأ فيه النور من جديد على يدى محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ولد فى هذا العام . ثم بعثه الله بعد ذلك هداية ورحمة للعالمين .

* * *

٣ ـ « الحجر الأسود

يتطلع المسلمون ـ كلما أذن الإيمان فى نفوسهم بالحج أو العمرة أو الطواف إلى ذلك الحجر الأسود الذى وضعه إبراهيم عليه السلام فى الركن الجنوبى الشرقى للمسجد الحرام ثم تركه وديعة غالية حفظتها الأجيال والقرون وبالغت فى حفظها حتى أن الإسلام الذى غير وبدل وهدم وأقام لم يتعرض لهذا الحجر بنقض أو هدم أو تغيير بل بقى فى مكانه وبقى له قدره ومكانه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليه ويقبله وكان المسلمون من وراء نبيهم يفعلون مثل ذلك وهم جميعاً يؤمنون بأنه حجر لاينفع ولايضر وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه كلمته المأثورة حينما طاف بالبيت :

« والله إنى أعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ».

وقد وردت آثار كثيرة فى فضل هذا الحجر وفيها ما يدل على أنه من الجنة . ولابد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة الفاحص المتأمل الذى لاينخدع بالعاطفة ، والذى يبتغى الحق لوجه الحق وحده ـ « فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما . ولولا أن الله طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص »

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم » ويذكر العلامة تقى الدين الفاسى فى كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض مع الرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه إذ يقول : « وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة وإنه لياقوتة بيضاء » :

وهذه الروايات وأمثالها تحمل فى طياتها ما يهدمها لما يظهر فيها من تعارض ، ثم هى فى ذاتها لاتقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً ؟؟ فأما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس تفيد إحداهما أن الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم اسود من ذنوب بنى آدم وخطاياهم ، وأما الثانية فإنها تفيد أنه اسود قبل أن يطوف به أحد

وأنه كان ياقوتة بيضاء ثم غيره الله بالسواد حتى لاينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة حينما يرون الحجر وهو ياقوتة بيضاء .

وأما أنها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً فلأن قيمة هذا الحجر لاتزداد إذا كان من أحجار الجنة ولا تنقص إذا كان من أحجار الأرض وذلك بأن قيمة الشيء إنما تكون فى الجوهر دون العرض وفى اللباب دون القشور ، فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب ، والحصى بين اللآلىء الغالية هو الحصى بين الرمال السافية .

والكعبة المشرفة التى بنيت من أحجار جبل أبى قبيس هى بيت الله الذى يشع بالهدى والنور ويسمو على مافى الجنة من دور وقصور .

ومن حقنا الآن أن نتساءل : ما الحكمة فى أن ينزل الله من الجنة ياقوتتين مضيئتين ثم يطمس نورهما ؟ إنهما إذن يفقدان خاصيتهما الكريمة وينزلان إلى مستوى الحصى والرغام ؟ ؟ أوما كان الأجدر أن يظلا ياقوتتين مضيئتين ليكونا من آيات الله الخالدة ؟ . وإذا قيل إن هذا الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم سودته خطايا الناس وذنوبهم فلماذا لم يره أحد من الناس فى زمن بياضه ؟ ولماذا لايزداد اسوداده على توالى الأزمنة والعصور ؟؟

كل هذه الخواطر التى تجول فى النفس تجعلنا ننظر إلى مثل هذه الروايات فى حيطة وحذر . وتشك كل الشك فى نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم ولاسيما أنه لم يذكر شيء منها فى الصحيحين . وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر قال إنه حديث غريب ؟؟ .

ولابد لنا إذن أن نتلمس السبيل إلى رواية أخرى لايتطرق إليها مثل هذا الضعف والوهن وتلكم الرواية هى ماذكره ابن الأثير فى تاريخه حيث قال : إن إبراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام قال لولده إسماعيل : فأطع ربك ، لقد أمرك الله أن تعينني على بنائه ، قال : إذن أفعل . فقام معه فجعل إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة . ثم قال إبراهيم لإسماعيل : ائتنى بحجر حسن (أى متميز فى لونه) أضعه على الركن ليكون للناس علما فأخذ حجراً من جبل أبى قبيس وهو الحجر الأسـود ووضعه فى موضعه فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم يقف على حجر وإسماعيل يناوله وهذا الحجر هو مقام إبراهيم . وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه » .

ومن هذه الرواية الواضحة وما يؤيدها من روايات ذكرتهـا أمهات الـكتب التاريخية يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة وإنما هو من أحجار جبل أبى قبيس

وقد أراد الله أن يوضع فى ركن من أركان بيته المحرم ليكون علما أى علامة يبدأ منها الطواف وينتهى إليها . فلما أذن إبراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف ونهايته وكان الطائفون يبدءون باستلامه وكأنما يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن النبى الكريم إبراهيم فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك وهم إنما ينظرون من خلاله إلى رب الحجر وخالق الحجر . ويوقنون إن إبراهيم الذى وضع هذا الحجر فى هذا المكان هو الذى حطم الأصنام وقضى على عبادة الأوثان .

❋ ❋ ❋

٤ ــ ((روايات عن ارهاصــات النبوة))

تتحدث كتب السيرة عن الإرهاصات التى وقعت قبل البعثة النبوية والتى كانت من البشائر التى سبقت النبوة ، وقد ذاعت بعض هذه الإرهاصات لدى الكثرة الغالبة من الناس مع أنها لم ترد فى كتب السيرة الأصيلة ولم يتحدث عنها الرسول فيما صح من أحاديثه .

ومن ذلك ما يروى أن أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى سقطت ليلة الميلاد ، وأن نيران المجوس خمدت فى هذه الليلة ، وأن بحيرة ساوة قد غاضت وانهدمت الكنائس التى حولها فى تلك الليلة « كذلك ، وأثارت هذه الروايات شعور الشعراء وهزت مشاعرهم فأخذوا يتغنون بها على توالى العصور . ومن ذلك ما قاله البوصيرى فى قصيدته المشهورة (بردة المديح) :

أبان مولده عن طيب عنصره
يا طيب مبتــدأ منه ومختتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهم
قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو متصدع
كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار خامدة الأنفاس من أسف
عليه والنهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورد واردها بالغيظ حين ظمى

وقد علق الكتاب القدامى والمحدثون على هذه الروايات وكان منهم من يؤيدها ومنهم من يعارضها وينفيها ، ويعجبنى مما جاء فى هذا المجال ماذكره الشيخ محمد الغزالى فى كتابه « فقه السيرة» حيث نفى مثل هذه الروايات نفياً قاطعاً فقال : « إن هذا تعبير غلط عن فكرة صحيحة فإن ميلاد محمد كان حقاً إيذاناً بزوال الظلم واندثار عهده وانداك معالمه ، وقد كانت رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها العالم للتحرر العقلى والمادى ، وكان جند القرآن أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالهم فى تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية إثر طاغية . فلما أحب الناس بعد انطلاقهم من قيود الفسق تصوير هذه الحقيقة تخيلوا هذه الإرهاصات وأحدثوا لها الروايات الواهية . ومحمد فى غنى عن هذا كله فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرف يزهدنا فى هذه الروايات وأشباهها .. ؟؟

ونحن نؤيد هذا الرأى السديد ونزيد على ماقاله الشيخ الغزالى أن معظم الكتب الأصيلة فى التاريخ والسيرة وكتب السنة الصحيحة لم

تذكر هذه الإرهاصات فيما ذكرته من سائر الإرهاصات والمعجزات التى رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ومثل هذه الحوادث الخطيرة لايمكن إغفالها لو كانت قد وقعت ، ولو أن أعداء الإسلام رأوها لما أنكروها بل كانوا يسجلونها فى كتبهم التى أرخوا فيها لتلك الفترة ويتلمسون لها أسباباً أخرى ويحاولون أن يرجعوها إلى أسباب كونية وعوامل طبيعية أو إلى غضب الآلهة عليهم إلى غير ذلك من التعليلات التى تخرج بها عن إثبات الفضل لمحمد ولدينه . . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، وبهذا يصبح واضحاً أن مثل هذه الروايات لاتحمل من أسباب القوة ما يجعلنا نطمئن إليها ونرجح وقوعها .

* * *

٥ ــ ((حادثة شق الصدر))

ونخصها بالحديث لأنها كانت حدثاً هاماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وجهت الأنظار إليه وهو في هذه السن المبكرة .

وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو في الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع خلف بيوتهم فعاد أخوه الطفل السعدي يقول لأبيه وأمه : ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أي يقلبانه) . .

تقول السيدة حليمة : فخرجت وأبوه فوجدناه قائماً ممتقعا وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يابني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو .

وقد خشيت السيدة حليمة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمه آمنة وقصّتْ عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابني هذا لشأنا ؟ فلم أكن أحس أثناء حمله بشيء مما تجده الحوامل وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج مني فأضاء لي قصور الشام ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة . وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج فلقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج .

* * *

مناقشـــة هـــذه القضية

ويختلف رأى العلماء فى معنى شق الصدر فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاصاً ومقدمة للنبوة وبشيراً بما ينتظر لمحمد من مركز عظيم ومقام كريم . وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، والتى تؤيد صدقه فى دعواه .

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما هو من قبيل المجاز ويقصد به ما يفهم من قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » فهى بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول صلى الله عليه من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

ولكننا نقول إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم تدعه العناية الإلهية غرضاً للوساوس التى تناوش غيره من سائر الناس ، وإنه لولم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبداً غرضاً للوساوس . بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوساوس دون أن تشق صدورهم .وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة فى نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد فى طفولته وبعد بعثته ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره . وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص على يدى السيد المسيح عليه السلام هى العناية التى شقت صدر محمد ثم أرجعته فى لحظات إلى حالته الطبيعية وهذا شأن المعجزات التى لاتخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .

ولا ينبغى بأى حال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازيه لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فأضجعانى وشقا صدرى » وفرار أخيه من الرضاعة فزعاً مما رأى ، ومجئ السيدة حليمة هى وزوجها ومقابلتهما لمحمد وهو ممتقع لونه وحكايته للقصة بنفس هذه الألفاظ . . كل ذلك يجعل الحقيقة فى هذه القصة واضحة لدى عينين ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين .

وإذا كان بعض المستشرقين مثل سير وليم موير ودر منجم ينكرون هذه الحادثة لأنها تعتمد على رواية طفلين لايصح الأخذ بقولهما فإننا نرى أن رواية الأطفال أقرب إلى الصدق وأبعد عن الكذب من رواية الرجال لأن الأطفال فى مثل هذه السن الصغيرة لا يمكن أن يختلقوا الكذب ويتفقوا عليها بمثل هذه الصورة ،

الدقيقة ومع ذلك لقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه وأخبر كذلك . عن المرة الثانية التى وقعت له فى ليلة الإسراء والمعراج .

وإذن فالرأى الذى ترتضيه هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية وأنه حقيقة لا ريب فيها . وهو من الإرهاصات التى تبشر بنبوة محمد وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ..

* * *

٦ ـ ((قصـــة الغرانيق))

قصة الغرانيق مشهورة وقد كثر فيها كلام الكتاب والباحثين المعاصرين ومن العجيب أن بعض المراجع الأساسية فى التاريخ كالطبرى فى تاريخه وابن سعد فى طبقاته . وابن الأثير فى كتابه الكامل ، كل هذه المراجع قد أثبتت هذه القصة دون أن تعلق عليها بما يدل على بطلانها وفسادها مع أنها تحمل فى طياتها ما يهدمها من أساسها ..

ومجمل هذه القصة أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما رأى تجنب قريش إياه وإيذاءهم له ولأصحابه تمنى ألا ينزل عليه شيء من القرآن ينفرهم فجلس يوماً فى إحدى أنديتهم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » . فقرأ بعد ذلك : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ثم مضى إلى نهاية السورة كلها وسجد فى آخرها عندقوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » ، وهناك سجد القوم جميعاً ولم يتخلف منهم أحد ، وأعلنت قريش رضاها عماتلاه النبى . وقالوا له : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا تشفع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم وفشا أمر ذلك فى الناس حتى بلغ أرض الحبشة فقال المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إليها عشائرنا أحب إلينا ورجعوا إلى مكة ...

وتضيف الرواية أن محمداً قد كبر عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا شفاعة فنحن معك وأنه جلس فى بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض عليه النبى سورة النجم فقال له جبريل : أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ : مشيراً إلى (تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) فقال محمد حينئذ : لقد قلت على الله مالم يقل . ثم أوحى الله إليه .

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ».

وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر وعادت لمناوءته وإيذاء أصحابه .. ، « تلكم هى قصة الغرانيق فى جملتها وهى قصة واضحة الكذب ولغة الوضع فيها ظاهرة ولذلك لم تنطل على كثير من العلماء الثقات أمثال محمد ابن إسحاق والقسطلانى فقالوا عنها : إنها من وضع الزنادقة ولعل بعض المؤرخين الذين أثبتوها كانوا يؤمنون بفسادها ولكنهم وضعوها فى كتبهم على أنها مجرد رواية مطمئنين إلى فطنة القارئ ويقظته . ولعلها دست إلى بعض هذه الكتب بعد موت أصحابها .

وحسبنا فى إبطال هذه القصة أن تقرأ الآيات القرآنية فى سورة النجم لنرى فيها أبلغ الرد على ما تدل عليه الجملتان الموضوعتان وذلك حيث يقول سبحانه :

« أفرأيتم اللات والعزى — ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى — تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

فكيف يعقل أن تحشر فى هذه الآيات التى وضحت دلالتها على حقارة الأصنام وسفه من يقدسونها جملتان ترفعان من شأن هذه الأصنام وتجعلان لها شفاعة مرجوة ؟ وكيف يمكن أن يسجد المشركون بعد أن يسمعوا هذه الآيات وفيها طعن صريح على آلهتهم حيث يقول الله عنها « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وأما أن محمداً قد كبر عليه قول المشركين إنهم معه مادام قد جعل لآلهتهم نصيباً من الشفاعة فهذا كلام لايتفق و جوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها العامة التى تحارب الشرك بكل مظاهره والتى تقوم على التوحيد الخالص البعيد عن كل الوسطاء والشفعاء .

وأما أن الرسول قد أوحى إليه بعد ذلك بتلك الآيات الكريمة : وهى قوله تعالى :

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » فلا شك أن هذه الآيات لاتؤيد مثل هذا الادعاء ولا تفيد وقوع مثل هذا الافتراء . لأن مفهوم الآيات أن الله قد ثبت رسوله على الحق فلم يركن إليهم لا قليلا ولا كثيراً وقد حال الله بينه وبين الافتراء على الله والركون إلى أعداء الحق .

وأما ماساقه هؤلاء الكاذبون الذين وضعوا هذا القصة من الاستشهاد على وقوعها بقول الله تعالى فى سورة الحج :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم» . وتفسيرهم للتمنى بالقراءة . وتعزيزهم لهذا التفسير ببيت من الشعر يحكى قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل مقتله فيقول

تمنى كتاب الله أول ليلة
وآخرها لاقى حمام المقادر

فهذه الآية الكريمة لا ينبغى أن يفسر التمنى فيها بالقراءة لأن هذا التفسير بعيد كل البعد عن المقصود . وليس له فى الأساليب العربية وجود إلا فى هذا البيت وحده ، وفى هذا دليل واضح على أن هذا البيت قد وضع لهذا الغرض خاصة ...

هذا ولو أننا فسرنا التمنى بمعنى القراءة فإن معنى ذلك أن يلقى الشيطان فى قراءة كل نبى كلا ماليفتن به الناس ثم ينسخه الله بعد ذلك، وهذا مالم يقع للأنبياء الذين لم تنزل عليهم كتب حتى يغير الشيطان فيها ثم ينسخ الله بعد ذلك ما يفعله الشيطان ، على أن سنة الله فى رسله وأنبيائه أن يؤلف حولهم القلوب فى مبدأ دعواتهم بإجراء المعجزات والخوارق على أيديهم بدل أن يمكن الشيطان من إلقاء الفتنة وإشعالها بين أتباعهم بنسخ ما ينزل عليهم بسبب تسلط الشيطان فينفر الناس منهم ويضعف الثقة فيهم .

والآية حينئذ تفسر على النحو الواضح المألوف فى لغة العرب ، ويكون المعنى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى هداية قومه ألقى الشيطان فى أمنيته : أى وضع الشيطان فى طريق تحقيق أمنيته العقبات والعراقيل فينسخ الله ما يلقى الشيطان أى فيذهب الله ما وضعه الشيطان من تلك العقبات بفضل إيمان المؤمنين وجهادهم ثم يحكم الله آياته أى يظهر الحق ويرسى أسسه ودعائمه والله عليم حكيم » .

وبهذا يتبين لنا أن قصة الغرانيق قصة مختلقة دست إلى بعض الكتب القديمة . وأنها ليست هى السبب فى رجوع المسلمين من الحبشة وإنما رجع هؤلاء المهاجرون من الحبشة إلى مكة بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر واعتقادهم أن إسلام هذين البطلين سيعتز به المسلمون وتقوى شوكتهم .

* * *

٧ ـ « دور الملائكة فى يوم بدر »

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة إلى الأرض لتثبت الذين آمنوا وتلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . وفى ذلك يقول الله عز وجل : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » ويقول إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ..

وقصة إمداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذى الأرض جميعاً قبضته والسماوات مطويات بيمينه ، وقد اختلف العلماء فى الغرض الذى من أجله أمد الله المسلمين بالملائكة ، فذهب بعضهم إلى أن الملائكة إنما نزلت للقتال . فهى جيش من السماء وأنزله الله لإضعاف شوكة الشرك والطغيان فى الأرض . ويستدلون على ذلك بما روى من أن رجلا من المسلمين كان يطارد رجلا من المشركين فى يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشق وجهه فلما أخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء .!! وما روى عن أبى داود المازنى حيث قال : تيممت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدى قبل أن يصل إليه سيفى . وهم يقولون إن الأمر فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » أمر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك أن الله قد قضى بانزال الملائكة للضرب والقتال .. ! !

ويذهب البعض الآخر إلى أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية الروح المعنوية لديهم وأنهم لم يشتركوا فى القتال ويذكرون فى الاستدلال على رأيهم حججاً وأدلة كثيرة .

أولها : أن الملك الواحد يستطيع إهلاك الكفار جميعاً فى لحظة واحدة فلماذا ينزل الله لقتال الكفار ألفاً من الملائكة ؟

وثانيها : أن الله لو قدر للملائكة أن تشترك فعلا فى القتال لما كان هناك مزية للمسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة . ولما كان هناك داع للأخذ بالأسباب العادية فى هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين بإعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وثالثها : أن المعركة حينئذ ستكون بين فئتين : فئة قليلة وهم المشركون ، وفئة كثيرة وهم المسلمون بعد انضمام الملائكة إليهم إذ يصبحون ألفاً وثلاثمائة ، بل إذا نظرنا إلى ما جاء فى سورة آل عمران حتى أن الملائكة قد زادوا فأصبحوا ثلاثة آلاف . ثم زادوا بعد ذلك حتى وصلوا إلى خمسة آلاف كما جاء فى قوله تعالى : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمـدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين». إذا نظرنا إلى ذلك وجدنا أن المسلمين مع الملائكة سيزيدون على خمسة آلاف وحينئذ لا ينبغى أن يقال : إن الفئة القليلة هى التى غلبت الفئة الكثيرة ..

ورابعها : أن الملائكة لو اشتركت فى القتال بهذا العدد الكبير ثم انجلت المعركة عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان هذا موقفاً مخزياً للملائكة الله ولاعتبر ذلك نصراً للمشركين وهزيمة للملائكة والمسلمين . وبذلك يتبين لنا أن الملائكة لم تنزل للقتال وإنما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الإيمان ومما يزيد هذا المعنى تأكيداً قول الله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم» أى وما جعل الله إمدادكم بالملائكة ليساعدوكم باشتراكهم فى القتال وإنما جعله الله للبشرى لكم بالنصر ولتسكن وتطمئن بهذا الإمداد قلوبكم حيث تدركون أن الله معكم فيزداد إيمانكم وجهادكم ويتحقق النصر بأيديكم ، ويكون الأمر فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان »أمراً موجهاً إلى المؤمنين وليس موجهاً إلى الملائكة. ويصبح المعنى المراد من الآية : إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم بمعونتى فثبتوا أيها الملائكة ثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم وأخبروهم بأن الله معهم وأنه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . وإذا كان الأمر كذلك فاضربوا أيها المؤمنون فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان .

وبهذا يتبين لنا — بما لا يقبل الشك والجدال — أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت القلوب ولكنها لم تشترك فى القتال .

* * *

٨ ـ ((أزواج النبى))

يثير هذا الموضوع أهمية بالغة لدى العلماء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين . وذلك لما يبدو فيه من شذوذ يدعو إلى العجب وغرابة تدعو إلى التساؤل : متى كان نبى الإسلام يتميز عن غيره من المسلمين ؟ ويبيح لنفسه ما يحرمه على غيره ؟ ولماذا يكون عدد الزوجات محدوداً بأربع لجميع المسلمين وتقيد الزيادة عن واحدة بشروط خاصة وفى ظروف خاصة بينما الرسول وحده هو الذى يتمتع بحرية مطلقة فى هذا المجال ؟

وقد انتهز المفكرون من الأجانب هذه الفرصة وحسبوا أنها نقطة ضعف تشين محمداً صلوات الله وسلامه عليه فأخذوا يوجهون سهامهم المسمومة ويطعنون خلق الرسول ويشوهون من تاريخه الحافل بالفضائل ويتقولون : إنه رجل تسيطر عليه الشهوة الجنسية وتملك زمامه ، وإنه حينما وجد أن تقييد عدد الزوجات بأربع لا يطفىء غلته ولا يرضى إربته أطلق لنفسه العنان كما يشاء فجمع إلى عصمته هذا العدد الضخم من النساء .

وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلوا غواشى الشك فى مثل هذه النقطة الغامضة حتى لا تضل فيها الأفهام وتزل بها الأقدام . وقد نشطوا لذلك — والحمد لله — على توالى الأزمنة والعصور وبينوا الدوافع القوية التى كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثيرات ، والتى كانت تجعل هذا الزواج هادفاً إلى المصلحة العامة دون سواها ، وأقاموا حجتهم على دعائم قوية من المنطق السليم .

فتتبعوا تاريخ محمد وما عرف عنه من العفة والزهد فى متاع الدنيا وزينتها . والطهارة الكاملة فى كل فترة من فترات حياته بشهادة أعدائه قبل أصدقائه ، وكيف مرت عليه فترة الشباب الحرجة دون أن يتزوج ، ولم يعرف عنه خلال هذه الفترة ما عرف عن الكثير من أترابه ولداته من النزق والطيش والانحراف العابث ، بل كان فى كل أحواله وظروفه مضرب المثل فى الخلق الكريم والمسلك القويم.

وبعد أن تزوج من السيدة خديجة — وكانت قد بلغت الأربعين وهو سن يعف عنه الكثير من الشباب — كان محمد صلوات الله وسلامه عليه راضياً بها ومطمئناً لها وسعيداً بالمعيشة معها لأنه لا يطلب من الزوجة إلا الإخلاص والوفاء وقد وجد فى زوجته خديجة الغاية

المرجوة من الإخلاص والوفاء . وهكذا ظل الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة حتى بلغ من العمر خمسين عاماً . ثم توفيت السيدة خديجة فتزوج الرسول سائر نسائه فى العقد السادس من حياته .

وفى مثل هذا العمر تضعف الغريزة الجنسية حتى لدى الأشخاص العاديين الذين لا يرهقهم التفكير فما ظنكم بمن حمل الأمانة الكبرى ووسدت له الإمامة الكبرى ومن استغرقت رعيته وأمته كل دقيقة من تفكيره وكل لحظة من لحظات حياته ؟ وماذا يمكن أن يبقى له من الطاقة حتى يصرفها فى ملذاته أو يقسمها على سائر زوجاته ؟

ولكن هذا المنطق السليم لم يقنع هؤلاء السادرين فى الغى والضلالة فظلوا على موقفهم من نبى الإسلام يطلقون حوله التهم الكاذبة والأراجيف الباطلة ، فماذا يمكن أن يقال لهؤلاء مادام الحقد على نبى الإسلام قد أكل قلوبهم ؟

ألا إننا سنقول لهم وبحق ما نقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
ويشتكى الفم طعم الماء من سقم

إننا تقول لهم ذلك ماداموا لا يؤمنون بالقضايا المنطقية ، فإذا تجاوزنا ذلك كله فليس يعيبنا أن نقول : إن هذه خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أباح الله له ذلك تأليفاً لقلوب القبائل التى يتصل بها برابطة النسب وحتى لا ينحصر شرف الاتصال بنسب رسول الله فى دائرة محدودة ، وحتى ينتشر الإسلام فى أكبر عدد من قبائل العرب ممن يرتبطون بمصاهرة الرسول ..

وحينما نزلت الآية الكريمة التى تقول : « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » حينما نزلت هذه الآية كان لابد من تطبيقها على جميع المسلمين عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من يدخل فى الإسلام يطلق ما يزيد على أربع من زوجاته إن كان تحت يده عدد أكبر حتى أن غيلان الثقفى أسلم وتحته عشر نساء فتخلص مما زاد على أربع منهن .

وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت قبل أن يزيد عدد نساء الرسول عن أربع أو نزلت بعد أن زاد عددهن فإن الثابت أن الرسول قد ظل غير مقيد بعدد خاص حتى نزل قول الله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » فلم يتزوج الرسول بعد ذلك وحينما لحق بربه كان فى عصمته تسع نساء فماذا عسى أن يكون موقف الرسول من هؤلاء الزوجات ؟

إن أزواج الرسول هن أمهات المؤمنين أنزلهن الله هذه المنزلة السامية وقال سبحانه : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » . وقد جعل الله من كرامة الرسول

عنده ألا تتزوج واحدة من نسائه من بعده فقال سبحانه : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيما ». وإذا كان الله قد حرم على نساء الرسول أن يتزوجن من بعده فكيف يطلق الرسول النساء الزائدات عن الأربع ويقضى عليهن بالترمل أبداً بينما يباح الزواج لأية امرأة إذا طلقها زوجها ؟

إن من حق زوجة الرسول وهى أم المؤمنين أن تظل طول حياة الرسول لابسة هذا الثوب الكريم الذى جملها الله به تعويضاً لها عما يمكن أن يصادفها من حرمان لا تتعرض له غيرها من سائر زوجات المسلمين بعد وفاة أزواجهن وقد قضى الله بذلك حيث قال لرسوله : «لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » فهذه الآية تقضى بألا يزيد الرسول عدد زوجاته وألا يبدل زوجة بأخرى مهما كانت الظروف والأحوال.

ونعود فنقول لهؤلاء المرجفين الذين يتهمون النبى صلى الله عليه وسلم بأنه رجل شهوانى : رويدكم أيها المضللون وحسبكم «إن الرجل الشهوانى لا يطيق أن يصبر على عدد معين من النساء لأنه يرى لذته فى أن ينتقل من زوجة الى زوجة فيقضى مع كل واحدة وقتا من الزمن ثم يبحث عن أخرى ليقضى معها الوقت الذى يليه فترى الرجل منهم إذا أراد أن يتزوج بامرأة أعجبه حسنها وكان تحت يده أربع نساء يطلق الرابعة ثم يتزوج من يشاء وتظل هذه العملية تتكرر كلما صرخ سعار الشهوة فى نفسه وبهذه الطريقة كان يستطيع أن يتزوج بالعشرات من النساء ، بينما لا يزيد عدد من يظللن فى عصمته عن أربع نساء .

وهكذا يسفر الصبح لذى عينين . وتظهر لنا ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم مبرأة من الشوائب والعيوب بعيدة كل البعد عن الشهوات الدنيا متوجة بالطهر والعفاف ومكارم الأخلاق .

* * * *

وبعـــد ، فهذه بعض القضايا من السيرة النبوية وهى تلك التى تعرضت للأباطيل والمفتريات وباء بإثمها بعض الناس سفها وبغير علم أو كذبا وبهتاناً وارضاء لقلوبهم الحاحدة ونفوسهم الحاقدة .. ولا يزال الكثير من قضايا السيرة النبوية فى حاجة الى توضيح وتصحيح. وأسأل الله أن يوفقنا لأداء هذا الواجب حتى يعرف الأعداء والأصدقاء مدى ما تزخر به هذه السيرة العطرة من القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية .

هذا ومن الله العون وبه التوفيق .

محمـد الطيب النجـار
عضو المجمع